تاريخ محمد علي باشا

حروب ابرهيم باشا

ذكرنا في الجزء الماضي استيلاء ابرهيم باشا على قلعة عكاء وانهزام الجيوش العثمانية امامهُ في واقعة حمص نقلاً عن الدكتور ميخائيل مشاقه الذي رأى تلك الواقعة مرأى العين وكان لهُ شأن فيها . وها نحن مثبتون اخبار ابرهيم باشا نقلاً عنهُ قال :—

اقام ابرهيم باشا في حمص يوماً واحداً . ويوم الاثنين عاشر صفر سنة ١٢٤٨ خرج بالعساكر في طريق حلب وقبلما وصل اليها التقى بحسين باشا قادماً لمقاتلتهِ ومعهُ اربعون الفاً من العساكر فانكسر حسين باشا وبقي ابرهيم باشا سائراً الى حلب ففتحت لهُ ابوابها فرتَّب امورها وارسل والياً الى ايالة اورفه وسار نحو بلاد الترك واستولى على ايالة ادنه بغير حرب لان البلاد كلها خافتهُ . وسار الى قونية فهرب محافظوها ودخلها بعسكرهِ ولم يكن قد بقي معهُ سوى اثني عشر الفاً لانهُ ترك بعضهم للمحافظة على البلاد التي فتحها وفتك الهواء الاصفر بالبعض الآخر . وبلغهُ حينئذٍ ان الصدر الاعظم وصل الى قرب قونية ومعهُ مئة وخمسون الفاً من الجنود بالمدافع والمهمات الحربية الكثيرة فخرج اليهِ بعساكرهِ القليلة وهي بقيادة سليمان باشا الفرنسوي فالتقى الجيشان ونشب القتال وكان الصدر الاعظم راكباً جوادهُ يجول بين العساكر يحرضهم ويشجعهم وكان الضباب كثيفاً والدخان منتشراً يعمي الابصار ورأى ابرهيم باشا كثرة عدد خصومهِ وعدد رجالهِ فيئس من النجاة ووقف لا يدري ماذا يعمل ومرَّ بهِ سليمان باشا الفرنسوي وهو على تلك الحال فقال لهُ اراك تجهل ابواب الحرب ولا تفرق بين الغالب والمغلوب فان نظام خصمنا قد اختلَّ وستدور الدائرة عليهِ قريباً واما نحن فلم يزل ترتيب جنودنا على ما يرام فتشجع ولا تخف لاني اعتقد ان عسكرنا هذا القليل يكفي لقهر خصمنا ولو كان ضعفي ما هو

فاشتدَّت عزيمة ابرهيم باشا وزاد تحريضهُ لرجالهِ . وبقي الصدر الاعظم يجول بين عساكرهِ في مقدمتهم ولشدة الضباب دخل بين الجنود المصرية وهو لا يدري فاحاطوا بهِ وقبضوا عليهِ واتوا بهِ الى ابرهيم باشا فقام للقائهِ واستقبلهُ بالاحترام اللائق برتبتهِ ونودي في الجيوش التركية ان الصدر الاعظم أخذ اسيراً فاختلَّ نظامهم وارتكنوا الى الهزيمة تاركين ما معهم من ميرة وذخيرة للمصريين

اما ابرهيم باشا فسار ومعهُ الصدر الاعظم الى قونية ثم بعث بهِ الى الاسكندرية وارسل بشائر انتصارهِ الى جميع البلاد الشامية وبلاد الترك التي فتحها . ولما استراح عسكرهُ نهض بهِ قاصداً ايالة كوتاهية فهرب حكامها من وجههِ ولم يبقَ من يعارضهُ لان الرعب ملأ القلوب فدخل كوتاهية من غير مقاومة وجعل فرسان المنادي يسيرون الى مدينة ازمير فلا يجدون من يعارضهم مع انها كانت لا تزال في حكم الدولة

وحينئذٍ بعث سفير انكلترا وسفير فرنسا الى ابرهيم باشا ليقف عن التقدم حتى يأتيهُ امر من والدهِ لان الدول الاوربية كانت قد توسطت في ازالة الخلاف من بينهِ وبين الباب العالي فوقف الى ان قرَّ القرار على ان يبقى لمحمد علي ايالات صيدا وطرابلس والشام وحلب وادنه ويعود ابرهيم باشا بجنودهِ الى سورية

وحضر شريف باشا الى دمشق حكمداراً على بلاد الشام من حلب الى غزة وهو من اقرباء محمد علي وكان على جانب كبير من الذكاء والانصاف الاَّ انهُ كان صارماً جدًّا لا يشفق على مذنب ولا يرحم مسترحماً فاماتَ كثيرين بضرب السياط فالذي يستحق ذنبهُ الضرب عشرين سوطاً يضربهُ خمس مئة سوط وكان عندهُ للضرب رجل مصري اسمهُ علي يفتخر بانهُ يجلد الانسان على رجليهِ اربع جلدات فيخرج الدم منهما وقد شاهدتهُ يجلد انساناً أُغمي عليهِ والدم ينزف من رجليهِ . لكن شريف باشا كان عادلاً صادقاً في كلامهِ ومواعيدهِ فرتب الولاية والمجالس على احسن حال وجعل لها مجلس استئناف في دمشق لاستئناف الاحكام واطلق الحرية التامة للقضاة ليحكموا كما يتراءى لهم وترفع الاحكام الى حنا بك بحري فينظر فيها ويعلق عليها ما يبدو لهُ من الملاحظات ويردها الى المجلس فاذا رأى اعضاؤهُ ان يجري بك مصيب عملوا برأيهِ والاَّ دارت المناقشة بينهم وبينهُ الى ان يتجلى الحق ويعمل بهِ

وفرض ابرهيم باشا على الرعايا مالاً سنوياً سُمِّي اعانةً وهو يختلف حسب غنى الانسان وفقرهِ من خمس مئة غرش في السنة الى خمسة عشر غرشاً حتى يكون المتوسط مئة غرش فاكثر وكان الريال العمود حينئذٍ بخمسة عشر غرشاً فاستثقل الناس ذلك من مسلمين ونصارى ولا سيما سكان القرى الذين يدفعون الاموال عن اراضيهم واغراسهم ومواشيهم ونحلهم وعسلهم وزاد على النصارى منهم مال جزية رقابهم كاهالي حاصبيا فوقع الامير سعد الدين في ارتباك عظيم لانهُ لا يستطيع ان يخالف اولياء الامر ولا يرى ان الرعايا قادرون على دفع ما فُرض عليهم فامرني بالنزول الى دمشق ومعي ورق ابيض عليهِ ختمهُ لكي اكتب عليهِ باسمهِ ما اراهُ لازماً فاتيت دمشق وكان كاتب مجلس الشورى يميل اليَّ وبيننا قرابة

وصداقة فقدمت كتاباً من الامير سعد الدين الى شريف باشا يقول فيه انه ارسلني وكيلاً عنهُ لترتيب اعانة بلاد حاصبيا في مجلس الشورى . فاحال شريف باشا هذا الكتاب الى المجلس فاخذتهُ الى الكاتب فوعدني بانجاز طلبي حالاً فقلت لهُ ارجو ان يؤخر الى ما بعد غيره وجعلت احرك وكلاء البلاد للشكوى من ثقل هذه الاعانة فكتبوا يتشكون ويسترحمون

ونجح المعلم بطرس كرامة في تنزيل قيمة الاعانة عن اهالي لبنان الى خمسين غرشاً وجعل عدد الرجال المكلفين اربعين الفاً لا غير مستثنياً الامراء والمشايخ وائمة الدين من مشايخ المسلمين وخطبائهم ومطارنة النصارى وخوارنتهم ورهبانهم ومشايخ العقل عند الدروز وخلواتيتهم وخطبائهم فكانت جملة الاعانة المفروضة على اهالي لبنان اربعة آلاف كيس وفرضت الاعانات على سائر البلاد على هذه النسبة وكان البقاع اقلها وهو ٣٥ غرشاً على المكلَّف وحينئذٍ اجتهدت في تقليل اعانة حاصبيا فجعلتها ٣٠ غرشاً على المكلف واما دمشق فلم يحسن اهاليها التصرُّف في ترتيب فئتها فجعلت ١١٠ غروش وبلغ المفروض عليها اكثر من اربعة آلاف كيس سنوياً . واكثر اهاليها من الصنَّاع الفقراء فوقع عليهم ضنك شديد لان الاغنياء الذين فُرض عليهم مبلغ كبير قليلون جداً

ثم شرعت الحكومة المصرية تمنع الامراء والمشايخ من الاستقلال في حكم بلادهم وجعلتهم مأمورين من قبلها برواتب معلومة لا تساوي عشر ما كانوا يجمعونهُ من بلادهم ثم صارت تعزلهم منها وتولي غيرهم لكن الامير بشيراً استصدر امراً من محمد علي باشا الى شريف باشا ليتركهُ مستقلاً في امارة لبنان فاستقل شريف باشا ذلك ولبث يتحين الفرص لنزع هذا الامتياز من الامير بشير . فنزع اولاً استقلال الامراء الحرافشة في بلاد بعلبك ورتَّب لهم معلشاً وفعل مثل ذلك بامراء حاصبيا وراشيا وذلك سنة ١٢٥٠ فصممتُ حينئذٍ على سكن دمشق فحضرت اليها وسكنتُ فيها وكنت الاحظ اشغال الامير سعد الدين عند الحكومة وفي مجلس الشورى وعندي ختمهُ على ورق ابيض

ولما تمادى المصريون في تغيير عادات العشائر وفرْض الاموال الطائلة على الاهالي نفرت القلوب منهم وصار سكان البلاد يتمنون رجوع حكم الاتراك وجاهر بعضهم بالعصيان فاضطر المصريون ان يكثروا عساكرهم لمنع الثورات واول من عصا طائفة النصيرية في جبال اللاذقية فأُرسلت الجنود من لبنان وحاصبيا وراشيا لتأديبهم فقهرتهم اولاً ودخلت جبالهم وامتلكت اماكن كثيرة فيها ثم تغلبوا عليها وقتلوا كثيرين منها فعادت الى اللاذقية لكن جاءتهم نجدات قوية فاخمدوا ثورة الثائرين

ثم شرعت الحكومة المصرية في اخذ العساكر من الاهالي وكانت لا تراعي نظاماً مخصوصاً ولا تجنّد الجنود الى اجل معين وذلك جعل الشبان يهربون من وجهها الاّ مسلي لبنان ودروزه فان الامير بشيراً امر ان لا يجنّد احد منهم الاّ باختياره فلم يتزح منهم احد واما في المدن الكبيرة كدمشق فان الجنود كانت تجول في الشوارع وتقبض على كل الشبان الذين تجدهم وكل من وُجد منهم صحيح الجسم ادخلوهُ العسكرية ولو كان وحيداً لوالديه بل ولو كان لهُ اخ في العسكرية ولم يبقَ في بيت ايدٍ غيرهُ

واستثقل اهالي نابلس وطأة الحكومة فجاهروا بالعصيان وهم ابطال مجربون فقام اليهم ابرهيم باشا بعساكره فحاربوهُ وضايقوهُ وكادوا يقبضون عليهِ وبلغ خبرهُ اباهُ في مصر فخضر بنفسهِ الى يافا لكن ابرهيم باشا نجا منهم ثم اغراهم بالطاعة وقبض على كبرائهم وقطع رؤوسهم

وسنة ١٢٥٣ عصى دروز جبل حوران بسبب المغارم الكثيرة فبعث شريف باشا ٤٥٠ من فرسان الهوارة عليهم ظانّاً انهم يكفون لتأديبهم لكنهم بيّتوا الهوارة وذبحوهم الاّ القليل منهم وغنموا خيلهم واسلحتهم . وطار الخبر الى شريف باشا فارسل عليهم ستة آلاف من الفرسان والمشاة . اما الدروز فانهم تحالفوا معرب السلوط ولجأوا الى اللجاة بعيالهم وهي عسرة المسالك جدًّا طولها عشرون ميلاً وعرضها خمسة عشر ميلاً كثيرة الصخور والشقوق يتعذر على الغريب السلوك فيها فدارت الدائرة على الجنود المصرية ولاسيما بعد ان جاء الشيخ شبلي العريان لمساعدة الدروز وكانت الدواب ترسل من دمشق بالميرة وتعود بالجرحى حتى دعت الحال الى مجيء الدكتور كلوت بك الفرنسوي من مصر ومعهُ بعض الاطباء لكثرة الجرحى

واخيراً قام شريف باشا وذهبَ الى اللجاة بنفسهِ ومعهُ جيش كبير فانهزم الدروز من امامهِ اولاً حتى اذا توسط اللجاة في مكان عسر المسالك عادوا عليهِ وقام الذين كانوا كامنين لهُ وراء الصخور واطبقوا على عسكرهِ وذبحوهُ ذبح الغنم وفاز شريف باشا بالفرار ولكن قتل اكثر الذين كانوا معهُ واستولى الدروز على اسلحتهم وامتعتهم واشتدت عزائم الدروز وكثرت جموعهم بمن كان ينضم اليهم وصاروا يرسلون سرية وراء سرية لتقبض على الميرة الواردة الى الجيش المصري بطريق عكاء

وبلغ ابرهيم باشا ما حلّ بجنودهِ من الدروز وكان في حلب فاتى دمشق وجهز جيشاً كبيراً وسار لقتالهم فلم ينل منهم مأربًا لان جنودهُ كانوا يخافونهم فانتقل الى سهل تسهل الحركة فيهِ على الجيوش المنظمة وبعث فرسان الاكراد امامهُ وسار في اثرهم ببقية الجيش حتى اذا بلغ الاكراد ارض دامه اطبق عليهم الدروز وكسروهم شر كسرة فدافع عنهم ابرهيم باشا بالجنود النظامية

وكان الرعب متمكناً من قلوب جنوده كما تقدم فانهزموا امام الدروز وجدّ الدروز وراءهم وسدّوا عليهم الطرق ولم يتمكن ابرهيم باشا من الخروج من اللجاة الاّ بعد عناء شديد وخسارة كبيرة فعمد الى منع الماء عنهم وكانوا يشربون من مياه في لحف اللجاة فعزم على دس السم فيها وطلب من كلوت بك ان يذيب السليماني حتى يصبهُ هم في الماء فابى كلوت بك ان يفعل ما امرهُ بهِ قائلاً ان صناعتي لاتجيز لي ذلك لا سيما وان الذين يشربون من الماء ليسوا الرجال فقط بل النساء والاطفال ايضاً . فقال لهُ ابرهيم باشا اني لا اخدعهم بل اخبرهم بما فعلت فاصرَّ كلوت بك على انهُ لايفعل ذلك. وكان في العسكر المصري غير كلوت بك من العارفين بفن الكيمياء فالزمهم ابرهيم باشا باذابة السليماني واشترى كل ما وجدهُ منهُ في اسواق دمشق فاذابوهُ وصبوهُ في الماء الذي يستقي منهُ الدروز فمات بعضهم عطشاً واضطروا ان يتركوا اللجاة ويمضوا الى بلاد راشيا وعرقوب حاصبيا . وكان في راشيا طابور من العسكر المصري في سراي الامير افندي فحاصروهُ واضطروهُ الى التسليم والرجوع الى دمشق ثم تبعوهُ في الطريق وذبحوهُ عن آخرهِ وبلغ ابرهيم باشا ذلك فكتب الى الامير بشير ان يرسل ابنهُ الامير خليلاً الى حاصبيا ومعهُ ثلاثة آلاف من اللبنانيين فرساناً ومشاة ونهض هو من دمشق بالعساكر قاصداً راشيا عن طريق الديماس حتى اذا بلغ وادي بكّا التقى بالشيخ ناصر الدين العائد قادماً من لبنان بالف رجل من دروزهِ لمساعدة الدروز في راشيا فنشب القتال بين الفريقين وكان الشيخ ناصر الدين من الابطال المعدودين ولكن اصيب برصاصة خرَّ قتيلاً والتجأ رجالهُ الى ربوة كثيرة الصخور والادغال ولا ماء فيها فاحاط بهم العسكر المصري فاصلوهُ ناراً حامية الى ان فرغ بارودهم واستمرَّ العسكر يطلق الرصاص عليهم الى ان افناهم . قال ابرهيم باشا في كتاب بعث بهِ الى شريف باشا انهُ رأى منهم رجلاً واحداً فاز بالنجاة لانهُ لم يصعد الربوة معهم اما انا فبلغني من اهالي بنطا المجاورة لمكان الواقعة انهُ نجا منهم اربعون نفساً والظاهر ان ابرهيم باشا لم يرَ غير الذي اخبر عنهُ

وبلغ الدروز في راشيا قدوم ابرهيم باشا عليهم فهربوا الى ارض جنعم من بلاد حاصبيا بالقرب من قرية شبعا. وشرقي جنعم جبل الشيخ وغربيها الجبل الوسطاني وهو عسر المرتقى يفصل حاصبيا وبعض قراها عن جنعم والتفَّ عليهم كثيرون من دروز حاصبيا وبلادها وبلاد راشيا واقليم البلاّن واتاهم شبلي العريان من اللجاة فارسل ابرهيم باشا الى الامير خليل ليوافيهُ برجالهِ الى جنعم ولما التقى بالدروز اصلاهم ناراً حامية الى ان دارت الدائرة عليهم واستأمنوا وارسلوا اليهِ الشيخ حسن البيطار من عقّال راشيا يلتمس لهم الامان وكانت عباءتهُ مخرَّقة من الرصاص وكان ابرهيم باشا

يعرفهُ ويسرُّ بكلامهِ فقال لهُ ألم تزل حيًّا فقال انظر ما في عباءتي من خروق الرصاص والباري سبحانهُ لم يسمح بقتلي فان شئتهُ انت فانا بين يديك . فقال لهُ انا لا اشاء قتل احد ولكن قومك يسعون في قتل انفسهم . فقال الشيخ انهم انتبهوا الآن من غفلتهم وارسلوني اطلب لهم العفو والامان . فقال ابرهيم باشا ذلك لهم على شرط ان يسلموني سلاحهم . فقال الشيخ انهم خاضعون يفعلون كل ماتأمرهم بهِ فاصدر امرك برسوم الامان وليتوجه معي مأمور لكي نجمع السلاح ونسلمهُ لهُ . فكتب المرسوم وذهب المأمور فاعطوهُ السلاح وعندهم غيرهُ

ونهبت خلوات البياضة في هذه الحوادث وهي للدروز بمثابة الاديرة للنصارى (واستطرد المؤلف هنا الى ذكر عقائد الدروز والى حادثة البادري توما الذي قتل في دمشق واتهم اليهود بقتلهِ وغير ذلك من الحوادث التي ليس لها شأن كبير في تاريخ ابرهيم باشا) الى ان كانت سنة ١٢٥٥ فارسل السلطان محمود جيشًا كبيرًا لمحاربة ابرهيم باشا واخراجهِ من سورية فمضى ابرهيم باشا الى حلب وجمع عساكرهُ والتقى بالجيش التركي وانتصر عليهِ ووجد بين اوراق السرعسكر فرمان الولاية على الشام لعلي اغا كاتب الخزينة

وكان شريف باشا والي الشام ناقمًا على علي آغا هذا لانهُ كان وجيهًا عند ابرهيم باشا وكان ابرهيم باشا ينزل في دارهِ كلما جاء دمشق ويسرُّ بمسامرتهِ ونوادرهِ . وحضر علي آغا حرب نابلس التي اشتدَّ فيها الضيق على ابرهيم باشا واظهر حينئذٍ من الشجاعة والبسالة ما رفع منزلتهُ عند ابرهيم باشا ثم سار معهُ لمقابلة محمد علي باشا لما جاء الى يافا . وكان يخدم الحكومة المصرية مجانًا لم يقبل وظيفة ولا انتفع بشيءٍ وعرض عليهِ ابرهيم باشا وظائف تليق بهِ فاعتذر عن قبولها . وقال لهُ ابرهيم باشا في مجلس شراب الى متى اعرض عليك الوظائف وانت تأباها فقال علي آغا اني اخدمك في كل ما تريد الاَّ الوظائف المرتبة فاني لا اقبلها . وكان حاضرًا حسن بك الكحالة الدمشقي متسلم القدس فقال لهُ اما خدمت في اللاذقية متسلمًا ثم صرت متسلمًا في حماه . فاغتاظ ابرهيم باشا منهُ وقال لهُ هل الوزراء الذين خدمتهم اعظم مني . فقال كلا ولكنهم ما كانوا يسألون عن تصرفي واما دولة مصر فتعاقب خادمها اذا تناول هدية ولو ديكًا فتحبسهُ ويحضر القبطي يكتب جورنال الدعوى بعينين مزورتين ويلحظني شزرًا كأني قاتل اباهُ ويقول قرَّر فلان وقرَّر فلان وتكون الدعوى على ديك او جرزة بصل فلا اجعل نفسي لاجلهما اسيرًا وخير لي ان ابقى حرًّا اقبل هدية الثور والجمل ولا احد يسألني . فقال لهُ ابرهيم باشا اني ارتب لك راتبًا يكفيك ويرضيك فلا يبقى لك عذر ولا حاجة الى الهدايا . فاجابهُ ان الباري تعالى عندما خلق السموات والارض خلق الاسماك في البحار

والحيوانات في البر والطيور في الجو وجعل جنةً فيها من الاشجار انواع شتى من كل ما تشتهيهِ الانفس ثم استحسن ان يخلق حضرة ابينا آدم مخلقةً على صورتهِ في غاية الكمال وافاض عليهِ روح النبوَّة وجعلهُ حاكمًا على جميع مخلوقاتهِ من البهائم والاسماك والطيور والاشجار والاعشاب لا يزاحمهُ فيها انسان آخر واخلص الله لذاتهِ شجرة واحدة ونهى آدم عنها فعصا وا كل منها وهو نبيٌّ. فهما اعطيتني لا تقدر ان تعطيني ما اعطاهُ الله لآدم وانا ابنهُ فلا بدَّ وان يكون طبعي مثل طبعهِ ولا اقف عند نهيك فتعاقبني فخير لي ان ابقى خارجًا عن وظائف الحكومة. فسرَّ ابرهيم باشا بهذا الجواب واقتنع بهِ. لكن لما رأى فرمان التولية لهُ من الباب العالي امر بتوقيفهِ في محل بدار الحكومة. وكان شريف باشا كارهًا لهُ كما تقدَّم فعمل مجلسًا لاثبات تهم اتَّهمهُ بها. وكان علي آغا يبرهن على براءتهِ منها وكنت اقف على كل ما يقال في الجلسات من الامير محمود حفيد الامير بشير فانهُ كان يحضرها بامر شريف باشا ولم يذكروا لهُ فرمان الولاية ولا هو كان عالمًا بهِ (كما ثبت لي بعدئذٍ من علي بك ابن خليل باشا الذي حضر دمشق واليًا عليها فانهُ اخبرني ان اباهُ سعى في الحصول على فرمان الولاية لعلي آغا من غير ان يخبرهُ بذلك). لكن براءتهُ وتبرئتهُ نفسهُ لم تجدياهُ نفعًا. فقطعوا رأسهُ امام سراي الحكومة في الصباح وتركوهُ مطروحًا الى آخر النهار ليراهُ الناس وكان عمرهُ سبعين سنة لكنهُ كان كابن خمسين. وكان يومًا عبوسًا على اهالي دمشق من مسلمين ونصارى ويهود لان علي آغا كان محبوبًا مكرَّمًا عند الجميع ولم يكن احد يظن ان تكون لهُ هذه الخاتمة من يد المصريين لانهُ كان محبًّا لابرهيم باشا مخلصًا الولاء لهُ.

ثم ان الامراء بيت الحرفوش اصحاب بعلبك كانوا حكامها منذ قرون كثيرة فلما اخرجهم ابرهيم باشا من حكمها رتَّب لهم رواتب لا تقوم بمعيشتهم فشقوا عصا الطاعة وكان الامير جواد الحرفوش اعلاهم مقامًا واشدهم بأسًا لكنهُ ملَّ من الفرار امام رجال الحكومة فالتجأ الى الامير بشير واستأمن اليهِ فامَّنهُ ووعدهُ بالسعي لهُ لدى الحكومة للعفو عنهُ وكتب الى شريف باشا فاتاهُ الجواب بان يرسل الامير جوادًا واتباعهُ الى دمشق. ولما وصل الى دمشق قطع رأسهُ وطرحهُ امام باب السراي. فهذه الاعمال المَّت الامير بشيرًا واضعفت ثقتهُ بالمصريين وصار ينتظر زوال نعمتهِ عن يدهم كما ازالوا نعمة غيرهِ. (ويظهر من حوادث كثيرة ذكرها الدكتور مشاقه في عرض كلامهِ ان ابرهيم باشا كان اعدل من شريف باشا وارأف منهُ جدًّا فكان يعفو عن القاتل والعاصي اذا طلبا العفو وذكرا سببًا معقولاً للقتل او للعصيان. مثال ذلك ان الامير بشيرًا والامير خليلاً الشهابيين اخوي الامير سعد الدين

صاحب حاصبيا فتلا الامير بشيرٌ والامير عليًّا بديمه بعد رجوع ابرهيم باشا من حاصبيا وكانا قد استأمنا اليهِ فامَّنهما . فامر بتوقيف الامير سعد الدين عند الامير بشير في لبنان وفرّ القاتلان من وجه الحكومة واختفيا مدة . واتَّفق ان حسين الطرابلسي من متولة بلاد بشارة وهو رجل مشهور بالشجاعة ولهُ احد عشر ولدًا وكلهم من الشبان الاشداء وكان يقطع الطرق ويعتدي على ابناء السبيل بالسلب والنهب التي بالامير خليل احد الاخوين القاتلين فاطلق عليهِ الرصاص واخطأهُ فهجم عليهِ الامير خليل برجالهِ وقبضوا عليهِ ونزعوا سلاحهُ وشدُّوا وثاقهُ وسلموهُ لمحمد آغا سويدان حاكم حاصبيا وأرسل الخبر الى ابرهيم باشا فقال يا سبحانَ الله ان القتلة الهاربين من وجه الحكومة يمسك احدهم الآخر ويسلمهُ للحكومة . فقال لهُ احد الحضور ان المقبوض عليهِ كان يقتل طمعًا بسلب الاموال واما القابض فقتل قاتل اخيهِ أخذًا بثارهِ وفرَّ خوفًا من سطوة الحكومة ولم يسلب راحة الرعية ولا اتعب الحكومة ثم اظهر ولاءهُ لها في هذه الحادثة . فقال ابرهيم باشا لا ريب عندي في ولاء الامراء الشهابيين ولكن اخذهم تأرهم بيدهم لما يشين ولا سيما لانهم خفروا ذمتي ومع ذلك فقد عفوت عنهم لصدق خدمتهم وامر باطلاق الامير سعد الدين وتأمين اخويهِ وصرف معاشاتهم وشنق حسين الطرابلسي فشنقوهُ في حاصبيا ثم ارجع حكومة حاصبيا وراشيا الى الامراء الشهابيين

ومن هذا القبيل ان شبلي العريان البطل المشهور الذي قاوم ابرهيم باشا اشد مقاومة في حوران وحاصبيا واستأمن ثم خان عاد وطلب الامان وسلم سلاحهُ لابرهيم باشا والقى نفسهُ بين يديهِ فعفا عنهُ واحضرهُ معهُ الى دمشق وردَّ لهُ سلاحهُ وعقد لهُ على ثلاث مئة فارس

وتوفي السلطان محمود سنة ١٢٥٥ وخلفهُ ابنهُ السلطان عبد المجيد وكثرت القلاقل في بلاد الشام بسبب المغارم التي فرضتها الحكومة المصرية على الاهالي مع انها انصفتهم بعضهم مع بعض ولم تكن تأخذ منهم غير ما فرضتهُ عليهم وكانت تهتم بالمنافع العمومية فتدفع نفقاتها من غير ان تكلفهم شيئًا . مثال ذلك ان المياه القذرة كانت تنصبُّ من بعض احياء دمشق وتجتمع في خندق خلف السور جهة باب شرقي ويفوح منها روائح كريهة على البيوت المجاورة واكثر سكانها من النصارى واذا جفَّت في الصيف نزحها اصحاب البساتين ونقلوها الى بساتينهم فتجتمع اقذار غيرها ويمكن صرفها في نهر عقربا الذي لا يستعمل الاَّ للري لانهُ يحمل اقذارًا كثيرة من دمشق ولكن لا يمكن جرُّها اليهِ الاَّ اذا مرَّت في اراضي وقف المجذومين فالتمس اهالي المحلة من ابرهيم باشا ان يأذن لهم في صرف تلك الاقذار في نهر عقربا على نفقاتهم فكتب الى شريف باشا لكي يبحث في طلبهم بمعرفة المهندسين ويرى مقدار النفقات اللازمة لهُ ولما

ثبت له ان الضرر حاصل وانهُ يمكن صرف الاقذار في نهر عقربا امر بعمل كل ما يلزم لذلك على نفقات الحكومة قائلاً انهُ من المنافع العمومية التي يجب ان تتحمل الحكومة نفقاتها لانها مكلفة بدفع الضرر عن الرعية

ومنها ان الجزارين رفعوا سعر اللحم حتى صار ثمنهُ فاحشاً فامر ابرهيم باشا مجلس الشورى ان يبتاع الغنم ويعين من يذبحهُ ويبيعهُ بثمن معتدل ولما رأى ان الجزارين لم يرعووا امر ان يترك لهم الربح الكافي وتؤخذ منهم الزيادة وتنفق في المصالح العمومية فارتدعوا

الاَّ ان ثقل الضرائب وانقطاع ارزاق ابناء العشائر وساعي الاتراك والاوربيين حملت اهالي سورية على شق عصا الطاعة فجاهروا بالعصيان وفازوا باخراج ابرهيم باشا من بلادهم كما سيجيء

الشيخ محمد عبده

سيرتهُ ومآثرهُ

نشرت جريدة المنار ترجمة مسهبة للشيخ محمد عبده ووعدت بنشر كتاب مطوَّل جمعت فيهِ اثارهُ ومآثرهُ وما كتب عنهُ . واجتمع كثيرون من تلامذتهِ واصدقائهِ ومريديهِ في الاربعين من وفاتهِ وتلوا خطباً وقصائد في سيرتهِ ومآثرهِ في الجامع الازهر ومجلس الشورى ومحاكم القضاء والبلاد الاسلامية عامَّة فكثرت لدينا المواد فوق ما نعرفهُ بالخُبْر من امر الفقيد فاقتطفنا منها ما يأتي :

ولد سنة ١٢٦٦ للهجرة من ابوين متوسطي الحال ووالدهُ من بلدة محلة نصر في مديرية البحيرة وينتمي بيت والدهِ الى بني عدي من العرب وقال انهم من ذرية عمر بن الخطاب . وقد سمعنا من الفقيد انهُ من العرب الذين هاجروا من بلاد المغرب الى القطر المصري وقال صاحب المنار انهُ نشأ كما ينشأ امثالهُ من ابناء البيوت المعروفة في القرى ولم يدخل المكتب لتعلم القراءة والكتابة الاَّ بعد ان جاوز العاشرة من سنهِ وقد كتب عن مبدإ تعلمهِ وتأدبهِ ما نصهُ

" تعلمت القراءة والكتابة في منزل والدي ثم انتقلت الى دار حافظ قرآن قرأت عليهِ وحدي جميع القرآن اول مرة ثم اعدت القراءة حتى أتممت حفظهُ جميعهُ في مدة سنتين ادركني في ثانيتهما صبيان من اهل القرية جاءوا من مكتب آخر ليقرأوا القرآن عند هذا الحافظ ظناً منهم ان نجاحي في حفظ القرآن كان من اثر اهتمام الحافظ . بعد ذلك حملني